

غابرييلا ميسترال

امرأة أحبّت

بقلم مون غونزاليس فيران

غابرييلا ميسترال: امرأة أحببت

تكريماً لأرتور نيلس لوندكفيست،
لورا روديج، بالما غيلين ودوريس دانا

1. مقدمة

كانت غابرييلا ميسترال أول امرأة تمنحها التاريخ جائزة نوبل في الأدب عن شعرها، وتحديداً في عام 1945، وأول شخصية من أمريكا اللاتينية تحصل على هذه الجائزة.

ينقسم هذا التكريم لغابرييلا ميسترال إلى أربعة أجزاء (غابرييلا المعلمة، غابرييلا الدبلوماسية، غابرييلا الشاعرة، وإرثها)، حيث سنحاول تركيز الاهتمام فقط على جزء واحد من إنتاجها الشعري: غابرييلا التي أحببت، وبشكل غير مباشر، غابرييلا الصوفية الحديثة.

2. التفاصيل

2.1 غابرييلا المعلمة: أحببت الأطفال والطفلات الذين كانت تُدرّسهم، وكانت تناضل من أجل مستقبل أقل مأساوية لهم

غابرييلا ميسترال هو الاسم المستعار الأدبي لامرأة وُلدت باسم لوسيللا دي ماريا ديل بيريتو سوكورو غودوي ألكاياتا. وهو اسم مستعار استمدته من كاتب كانت تعشقه: فريديريك ميسترال، الكاتب من جنوب فرنسا؛ الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1904؛ وكان رجلاً يتمتع بحساسية فائقة وخاض نضالاً سياسياً ولغوياً شغوفاً من أجل إعلاء شأن لغته، الأوكيتانية.

ولدت غابرييلا في فيكونيا، بمقاطعة إلكي، في منطقة كوكيمبو، بالقرب من وسط الشريط الطويل الذي يُعرف بشيلي، في 7 أبريل 1889. ولا يزال هناك [متحف](#) في فيكونيا في المنزل الذي ولدت فيه.

بدأت غابرييلا العمل كمدرسة مساعدة في سن السادسة عشرة، في عام 1904، في مدرسة «كومبانيا باخا» في لا سيرينا. ومنذ عام 1908، عملت كمعلمة في بلدة لا كانتيرا، ثم في لوس سيريلوس، على الطريق المؤدي إلى أوفال. وظلت تعمل كمعلمة، على الرغم من أنها لم تدرس، لأنها لم تكن تملك المال اللازم لذلك. كانت من المتعلمين ذاتياً، مثل ميغيل هيرنانديز.

لاحقاً، في عام 1910، وهي في الثانية والعشرين من عمرها، اعتمدت معرفتها في المدرسة التربوية رقم 1 في سانتياغو وحصلت على اللقب الرسمي «معلمة حكومية»، مما مكنها من ممارسة التدريس في المرحلة الثانوية. وقد كلفها هذا الأمر منافسة زملائها، حيث حصلت على هذا اللقب من خلال اعتماد معرفتها وخبرتها، دون أن تلتحق بالمعهد التربوي التابع لجامعة تشيلي. سرعان ما بدأت غابرييلا تثير الحسد في الأوساط التربوية الذكورية التي كانت تحيط بها. ولم يسبق لأحد أن لخص الوصايا التي يجب أن يلتزم بها المعلمون والمعلمات، كما فعلت غابرييلا، في «الوصايا العشر للمعلم».

الوصايا العشر للمعلم

أحب: إذا لم تستطع أن تحب كثيراً، فلا تُدرّس الأطفال
بسط: المعرفة هي التبسيط دون انتقاص من الجوهر.
أصر: كرر، كما تكرر الطبيعة الأنواع حتى تصل إلى الكمال.

عَلَّمَ: بنية الجمال، لأن الجمال هو الأم.
المعلم: كن متحمساً. لإشعال المصابيح، عليك أن تحمل النار في قلبك.
أضف الحيوية إلى حصتك الدراسية. يجب أن تكون كل حصة حياة ككائن حي.
طور نفسك: لكي تعطي، يجب أن تمتلك الكثير.
تذكر: أن مهنتك ليست سلعة، بل خدمة إلهية.
قبل أن تبدأ حصتك اليومية، تأكد من نقاء قلبك.
فكر: في أن الله قد كلفك بخلق عالم الغد.

عاشت غابرييلا ودرّست في أنحاء تشيلي، من أنتوفاغاستا في أقصى الشمال، وصولاً إلى ميناء بونتا أريناس في أقصى الجنوب، حيث أدارت أول مدرسة ثانوية لها وأحييت حياة المدينة. في عام 1921، وهي في الثانية والثلاثين من عمرها، وهو نفس العمر الذي توفي فيه ميغيل هيرنانديز في سجن فرانكيستي في أليكانتي، كانت غابرييلا ميسترال تطمح إلى خوض تحدٍ جديد، بعد أن أدارت مدرستين ثانويتين ذات جودة رديئة. تقدمت لامتحان التعيين وفازت بالمنصب المرموق كمديرة للمدرسة الثانوية رقم 6 في سانتياغو، لكن المعلمين لم يستقبلوها جيداً، ووبخوها على افتقارها إلى الدراسات المهنية.

ربما كان هذا الشعور بعدم الفهم والازدراء من قبل الرجال السودين الذين أحاطوا بها هو ما دفع غابرييلا بشكل نهائي إلى ترك وطنها تشيلي الحبيب وراءها، لتصبح معلمة بارزة خارج حدود تشيلي. وهكذا، في 23 يونيو 1922، أبحرت غابرييلا ميسترال إلى المكسيك على متن الباخرة «أوركوما»، بدعوة من وزير التعليم المكسيكي آنذاك، خوسيه فاسكونسيلوس. ومكثت هناك قرابة عامين، حيث عملت مع أبرز المثقفين في العالم الناطق بالإسبانية في ذلك الوقت. ومن هناك سافرت إلى بلدان أخرى في أمريكا اللاتينية، مثل جمهورية الدومينيكان وكوبا ونيكاراغوا، بالإضافة إلى الولايات المتحدة وأوروبا، حيث درست المدارس والأساليب التربوية في تلك البلدان.

2.2. غابرييلا الدبلوماسية

كانت تتناوب بين هذه الرحلات بصفتها «معلمة العالم ومن أجل العالم» وبين بداياتها في مجال الدبلوماسية. وهكذا، في منتصف العشرينات، بعد جولة في الولايات المتحدة وأوروبا، عادت إلى تشيلي، حيث كانت الأوضاع السياسية متوترة للغاية لدرجة أنها اضطرت إلى المغادرة مرة أخرى، وهذه المرة للعمل في أوروبا كسكرتيرة لأحد أقسام عصبة الأمم في عام 1926. وفي العام نفسه، شغلت منصب سكرتيرة معهد التعاون الدولي التابع لعصبة الأمم في جنيف.

في عام 1933، بدأت غابرييلا ميسترال مسيرتها الدبلوماسية رسمياً وعملت، على مدى عشرين عاماً، كقنصلية تشيلي في مدن أوروبية وأمريكية، على التوالي. وراء هذه المرحلة، على الأقل في بداياتها، يمكن رؤية اليد الممدودة لـ«بيدرو أغيري سيردا»، الذي كان أستاذاً في بداياته، وحاصل على شهادة جامعية من تشيلي ودكتوراه من السوربون؛ والذي تعرفت عليه غابرييلا في عام 1916؛ والذي أهدت له غابرييلا ديوانها الشعري «الوحشة»؛ والذي ألهمته غابرييلا لكتابة «المشكلة الزراعية» (1929)، وهو كتاب مكرس لها؛ والذي كان قد عاد نهائياً إلى تشيلي من المنفى في عام 1930؛ وشغل منصب رئيس تشيلي بين عامي 1938 و1944.

بدأت غابرييلا ميسترال مسيرتها الدبلوماسية بصفتها قنصلية في مدريد بين يوليو 1933 وأكتوبر 1935. ثم عُيّنت في أكتوبر 1935 قنصلية في لشبونة حتى مايو 1936، حيث عُيّنت قنصلية في بورتو. وأمضت الفترة بين نوفمبر 1936 وديسمبر 1938 في غواتيمالا بصفتها قنصلية عامة فخريّة، وفي نيس من ديسمبر 1938 يناير 1940. في يناير 1940، تم تعيينها في نيتيرو (مدينة في ولاية ريو دي جانيرو، البرازيل). ومنذ يناير 1941، انتقلت إلى بترولييس (مدينة في نفس الولاية البرازيلية)، وهي المدينة التي تلقت فيها نبأ فوزها بجائزة نوبل عام 1945.

في أواخر عام 1945، عادت إلى الولايات المتحدة، وهذه المرة بصفتها القنصل العام في لوس أنجلوس (الولايات المتحدة)، واشترت، بالأموال التي حصلت عليها من الجائزة، منزلاً في سانتا باربرا (الولايات المتحدة)، حيث عُيّنت قنصلية في عام 1947. في يونيو 1950، عُيّنت قنصلية في فيراكروز (المكسيك)، ومنذ نوفمبر 1950 شغلت منصب قنصل أولاً ثم قنصل عام (أكتوبر 1951) في نابولي. في ديسمبر 1952، عُيّنت قنصلية في فلوريدا (الولايات المتحدة الأمريكية). ومنذ أغسطس 1953، شغلت منصب القنصلية الملحقة في نيويورك، وهو المنصب الذي بقيت فيه حتى وفاتها في عام 1957.

2.3. غابرييلا الشاعرة: ملكة الأدب الأيبيري والأمريكي والمرأة التي أحبت

2.3.1. غابرييلا الشاعرة: ملكة وسفيرة الأدب الأيبيري الأمريكي

في 12 ديسمبر 1914، حصل على الجائزة الأولى في مسابقة الأدب ضمن «الألعاب الزهرية» التي نظمها اتحاد طلاب مدينة تشيلي (FECh) في سانتياغو، عن قصائده «سوناتات الموت».

وقد أدرجت هذه القصيدة في أول أعمالها، «الوحشة»، الذي صدر في نيويورك عام 1922 ونُشر من قبل معهد «لاس إسبانياس»، بمبادرة من مديره فيديريكو دي أونيس. وفي رأيي، يُعد هذا العمل تحفة فنية لها. ومع ذلك، على الرغم من أن هذا الكتاب أعدّ بنية حسنة من قبل مدير معهد «لاس إسبانياس»، برغبة صادقة في تعريف العالم بها، أعتقد أنه يفتقر، من حيث بنيته، إلى التماسك والمنطق.

في عام 1924، بعد عامين، عندما كانت غابرييلا في الثالثة والثلاثين من عمرها، صدر ديوانها الشعري الثاني: «Ternura». وفي عام 1938، وهي في التاسعة والأربعين من عمرها، نشرت «Tala»، ديوانها الشعري الثالث. وفي عام 1954، وهي في الخامسة والستين من عمرها، نشرت ديوانها الشعري الرابع والأخير: «Lagar».

وبين ديوانيها الثالث والرابع، في 10 ديسمبر 1945، وهي في سن 57 عامًا تقريبًا، حصلت على جائزة نوبل للأدب من يد الملك غوستاف الخامس ملك السويد. وكانت خامس امرأة في تاريخ جوائز نوبل للأدب منذ بدء مسيرة هذه الجوائز في عام 1901 تحصل عليها [أما الأربع اللواتي سبقنها فكان: السويدية سيلما لانغرلوف في عام 1909؛ والإيطالية غراتسيا ديليدا في عام 1926؛ والنرويجية المولودة في الدنمارك سيغريد أوندست في عام 1928؛ والأمريكية التي نشأت في الصين بيرال س. باك في عام 1938]، لكنها كانت أول امرأة تحصل عليه حصريًا عن شعرها، وبالتحديد، كما قيل في حفل التسليم آنذاك: «عن شعرها الغنائي الذي، مستوحى من مشاعر قوية، جعل اسمها رمزًا للتطلعات المثالية للعالم اللاتيني بأسره».

كانت غابرييلا أول شخصية من أمريكا اللاتينية تحصل على جائزة نوبل في الأدب. وكان كون هذه الشخصية الأولى امرأة أمرًا لم يغفره لها الكثير من الرجال أبدًا. وفي حفل تسليم الجائزة، أطلق عليها لقب «ملكة الأدب اللاتيني الأمريكي». ونظرًا لأن مصطلح «أمريكا اللاتينية» هو مصطلح فرنسي المنشأ ابتكره الفرنسيون في محاولة لإبراز نفوذهم في الأمريكتين، يُفضل استخدام كلمة «إيبيري-أمريكية»، ولهذا أسميها في هذا العنوان «ملكة الأدب الإيبيري-أمريكي»، تكريمًا لتلك الجماعة الإيبيري-أمريكية التي تربطنا بإيبيريا وأمريكا، والتي بدأت تتبلور منذ أوائل التسعينيات، بروح ميسترالية خالصة، تحت مظلة القمم الأيبيرية الأمريكية: القمة الأولى عام 1991 في غوادالاخارا، المكسيك، البلد الذي حظيت فيه غابرييلا بأكثر قدر من التيجيل وأكثره عدلاً؛ والقمة السادسة عام 1996 والقمة السابعة عشرة عام 2007 في وطنها تشيلي. ونظرًا لأنها عملت كدبلوماسية نصف عمرها، لكان من دواعي سرورها أن يُطلق عليها، هي التي شغلت منصب القنصل العام، لكنها لم تشغل منصب السفير قط، لقب «سفيرة الأدب الإيبيري-أمريكي»، وهو ما أوّمن إيمانًا راسخًا بأنها كانت عليه.

ونود أيضًا أن نقدم هنا تحية تقدير صادقة إلى أرتور نيلس لوندكفيست (1906-1991)، الشاعر والكاتب السويدي، والعضو الأصيل في الأكاديمية السويدية للغة منذ عام 1968، والداعية المقتنع بالسلام خلال فترة الحرب الباردة القاسية، والذي كان هو من ترجم، حيث كان قد تعلم الإسبانية والفرنسية بنفسه وبمساعدة القواميس، جميع كبار الأدباء إلى اللغة السويدية، وبفضل ذلك منحتهم الأكاديمية جائزة نوبل. في عام 1936، زار إسبانيا وأمريكا اللاتينية برفقة زوجته، الشاعرة السويدية ماريا واين. ما لا يعرفه الكثيرون هو أنه كان أول من ترجم أعمال غابرييلا ميسترال إلى اللغة السويدية، وبفضل ترجمته ونضاله، حصلت غابرييلا ميسترال على جائزة نوبل، لأن المترجمين، حتى لو كانوا عصاميين مثل هذا الرجل النبيل، قادرون على صنع المعجزات وتجاوز الهوات. كان كل من غابرييلا وأرتور يشتركان في كونهما شاعرين ومناصري السلام وروحانيين. وقد أعرب كل من بابلو نيرودا، وغابرييل غارسيا ماركيز، وكاميلو خوسيه سيلا، عن شكرهم الصريح له على جائزة نوبل التي حصل عليها. في الواقع، منذ وفاته عام 1991، لم يقم أحد آخر بالترجمة إلى اللغة السويدية لفترة طويلة، ولهذا السبب استغرق الأمر عشر سنوات حتى تُمنح جائزة نوبل مرة أخرى لشخص ناطق باللغة الإسبانية. أشكر جيراردو هيرنانديز روا، الأستاذ التشيلي المقيم في السويد منذ ثمانينيات القرن الماضي، على المعلومات التي قدمها عن لوندكفيست.

2.3.2. غابرييلا: امرأة عظيمة أحببت الجميع، كل الناس، والإنسانية بأسرها

2.3.2.1. غابرييلا أحببت الرجال

سنحدث هنا عن ثلاثة رجال بأسمائهم الكاملة. يصعب تصنيف المشاعر التي أبدتها غابرييلا تجاههم، حيث لم يكن أي منهم زوجها الرسمي. لكن هناك قاسم مشترك بينهم جميعاً: فقد انتحروا جميعاً.

2.3.2.1.1. روميليو أوريتا: حب شبابها

وعلى الرغم من أن غابرييلا ميسترال كانت حريصة جداً على خصوصية حياتها الشخصية، ولا يُعرف سوى القليل عن قصص الحب أو الخيبة التي عاشتها، إلا أن العديد من الباحثين يشيرون إلى أن وراء قصيدة «الوحشة» تكمن خيبة حب كبيرة. وعلى وجه التحديد، وراء قصيدة «سوناتات الموت»، وهي أول قصيدة لها حازت على جائزة وأدرجت في مجموعتها الشعرية الأولى «ديسولاسيون»، كان هناك رجل. ويؤكد ذلك دراسة أجرتها أنا ماريا كونيو، وردت في «الأنطولوجيا عن غابرييلا ميسترال» التي نشرتها الأكاديميات الـ 22 للغة الإسبانية كإصدار تذكاري في عام 2010. تقول أنا كونيو في مقالتها – وأقتبس حرفياً –: «التقت لوسيليا بروميليو أوريتا في عام 1906 في لا سيرينا، حيث كان يعمل في السكك الحديدية... وبعد ذلك بوقت قصير التقيا في نزل في لا كانتيرا حيث كانت تعمل معلمة... وفي نوفمبر 1909، انتحر أوريتا لأسباب مالية».

ونحن نعلم أن القصيدة «سوناتات الموت» حازت على جائزة في عام 1914، لكننا لا نعرف، بسبب الاستعجال الذي اتسمت به طباعة «الخراب»، السنة الدقيقة التي كُتبت فيها تلك القصيدة، لكن من المحتمل جداً أن تكون قد كُتبت بعد انتحار روميليو في عام 1909.

في عام 1914، عندما فازت هذه القصيدة بالجائزة، كان ميغيل هيرنانديز في الرابعة من عمره فقط، لكن ربما يكون ميغيل هيرنانديز قد قرأها. إنها تذكرنا كثيراً بـ «مرثية لرامون سيخي»! لن نعرف على وجه اليقين أبداً ما إذا كانت غابرييلا قد ألهمته، لكن إذا كانت هناك ورود في لا سيرينا، ففي أليكانتي كانت أشجار اللوز في إزهار:

سوناتات الموت

I

من الكوة المتجمدة التي وضعك فيها الناس،
سأُنزلك إلى الأرض المتواضعة والمشمسة.
لم يعلم الناس أنني سأنام فيها،
وأنا سنحلم على نفس الوسادة.

سأضعك على الأرض المشمسة بـ
حنان الأم لابنها النائم،
وستتحول الأرض إلى مهد ناعم
عندما تستقبل جسد طفلك المتألم.

ثم سأذهب لأرشف التراب وغبار الورود،
وفي الغبار الأزرق الخفيف الذي يبعثه القمر،
ستبقى البقايا الخفيفة أسيرة.

سأبتعد وأنا أغني انتقامي الجميل،
لأنه في ذلك العمق الخفي لن تنزل يد أحد
لتنازعني على حفنة عظامك!

II

سيزداد هذا التعب الطويل يوماً ما،
وستقول الروح للجسد إنها لا تريد أن تستمر
جرّ جسدها على الطريق الوردي،
الذي يسير عليه البشر، سعداء بالحياة...

ستشعر بأنهم يحفرون بجانبك بحبوية،
وأن نائمة أخرى تصل إلى المدينة الهادئة.
سأنتظر حتى يغطوني بالكامل...
وبعد ذلك سنتحدث إلى الأبد!

عندها فقط ستعرف لماذا لا تنضج،
لحمك لم ينض بعد بالنسبة للعظام العميقة،
واضطرت إلى النزول، دون تعب، لتنام.

سيشرق النور في منطقة الأجراس المظلمة؛
وستعلم أن في عهدنا كانت هناك علامة من النجوم
وبعد أن انكسر العهد العظيم، كان عليك أن تموت...

III

أيدي شريرة سلبت حياتك منذ اليوم
الذي تركت فيه، بإشارة من النجوم، حديقته
المتلج من زهور الزنبق. وكان يزدهر بفرح.
أيدي شريرة اقتحمته بشكل مأساوي...

فقلت للرب: «على دروب الموت
. أيتها الظل المحبوب الذي لا يجيدون إرشاده!
انتشله، يا رب، من تلك الأيدي القاتلة
أو اغرقه في النوم الطويل الذي أنت قادر على منحه!

لا أستطيع أن أصرخ إليه، ولا أستطيع أن أتبعه!
ريح عاصفة سوداء تدفع قاربه.
أعده إلى ذراعي وإلا ستقطعه وهو في مقتبل العمر».

توقف القارب الوردي لحياته...
ألا أعرف الحب، ألم أكن رحيمة؟
أنت الذي ستحكم عليّ، أنت تفهم ذلك، يا رب!

2.3.2.1.2. ستيفان زفايغ: صديقه العزيز

ستيفان زويغ — ابن أبوين يهوديين، كاتب نمساوي مولود في فيينا، أحد أكثر الكتاب فطنة في أوروبا بين الحربين العالميتين، على الرغم من حظر النازية لكتبه عام 1936، وصديق عزيز لغابرييلا — كان يعيش منذ عام 1941 أيضاً في بتروبوليس، حيث وصل برفقة زوجته الثانية، شارلوت إليزابيث ألتمان، هرباً من النازية الألمانية. في 22 فبراير 1942، انتحر ستيفان وزوجته في بتروبوليس، بعد أن فقدوا الأمل واعتقدوا أن النازية ستحتل العالم.

2.3.2.1.3. خوان ميغيل بابلو غودوي ميندوزا: ابنه بالتبني: ابنه

يُعرف هذا الصبي، الذي يُطلق عليه لقب «بين بين» بحب، بأنه وُلد على الأرجح بين مايو ويونيو من عام 1925. ويوضح شجرة العائلة المتوفرة على الإنترنت أنه ابن مباشر لابن عم غابرييلا، كارلوس غودوي، الذي كان يعمل بحاراً تجارياً؛ ومارتا ميندوزا، التي توفيت في جنيف عام 1926. تبنته غابرييلا ميسترال في برشلونة في مارس 1926، وربته وأحبته كأنه ابنها. ومنذ ذلك الحين، ظل الصبي يرافقها في رحلاتها حول العالم. في 14 أغسطس

1943، وبينما كانت غابرييلا في بترولبوليس (البرازيل)، انتحر ابنها، بعد أن أتمّ للتو 18 عامًا. كان هذا هو الانتحار الثالث لأشخاص أعزاء ومقربين من غابرييلا في غضون عام ونصف. والقصيدة التالية، «المهجورة»، الواردة في ديوانها «لاغار»، ربما تكون قد كُتبت بعد ذلك الانتحار، وهي مكرسة لـ«إيما غودوي»، التي يُرجح أنها ابنة عم أخرى لها، وشقيقة والد الطفل البيولوجي، وعمّة بين بين.

المنبوذة

الآن سأتعلم
بلد الكآبة،
وسأنسى حبك
الذي كان لغتي الوحيدة،
كنهر ينسى
مجربه وتياره وضفافه.

لماذا جلبت كنوزًا
إن لم تكن ستحمل النسيان؟
كل شيء زائد عن حاجتي وأنا نفسي زائدة
مثل ثوب احتفالي لحفلة لم تُعقد؛
لدرجة، يا إلهي، أن حياتي
حياتي منذ اليوم الأول!

أعطوني الآن الكلمات
التي لم تعطيني إياها المربية.
سأتمتم بها بجنون
مقطعًا تلو الآخر:
كلمة «نهب»، وكلمة «لا شيء»،
وكلمة «النهاية»،
حتى لو انحرفوا في فمي
كالأفاعي التي تعرضت للعض!

لقد جلست في منتصف الأرض،
يا حبيبي، في منتصف الحياة،
لأفتح عروقي وصدري،
لأفشر نفسي كرمان حي،
وأكسر خشب الكاوبا الأحمر
عظامي التي أحببتك.

أنا أحرق ما كان بيننا:
الجدران العريضة، والعوارض العالية،
أفكّ واحدًا تلو الآخر
الأبواب الاثني عشر التي كنت تفتحها
وأسدّ بضربات الفأس
بئر الفرح.

سأنثر، دفعة واحدة،
المحصول الذي حصدته أمس،
وسأفرغ قوارير النبيذ
وأطلق سراح الطيور الأسيرة؛
وسأكسر، مثل جسدي،
أطراف «البيت الريفي»
وإلى قياس كومة الرماد

كومة الرماد.

كم يؤلم، كم يصعب،
كم كانت الأمور إلهية،
ولا تريد أن تموت، وتشتكي وهي تموت،
وتفتح أحشاؤها الحية!
نتفهم الحطب وتتحدث،
والنبذ ينظر وهو يتصاعد
وإلى الأعلى ترتفع أسراب الطيور
ببطء ومبعثرة كالضباب.

فليأتِ الريح، وليحترق بيتي
أفضل من غابة من الراتنجات؛
فلتسقط حمراء ومائلة
الطاحونة والبرج العرابية.
ليلي، التي يلاحقها اللهب،
ليلة المسكينة، ألا تصل إلى النهار!

وحب شبابي عظيم ينتهي بالانتحار، مثل حب روميليو؛ بالإضافة إلى انتحار صديق عزيز كاتب وزوجته؛ فضلاً عن انتحار ابنه بالتبني، كل ذلك يترك حتماً أثراً عميقاً. وليس الأمر أن المرء قد سعى إلى ذلك، بل ببساطة هناك أشخاص يقع عليهم، للأسف، أن يعيشوا حياة قاسية بشكل خاص. مقالب القدر. القدر المشؤوم. وكان مصير غابريلا أحدها.

2.3.2.2. غابريلا أحبت النساء

سنتحدث هنا عن ثلاث نساء بأسمائهن الكاملة. يصعب تصنيف المشاعر التي أبدتها غابريلا تجاههن، فلم تكن أي منهن زوجتها الرسمية. لكن هناك قاسم مشترك بينهن: فقد رافقتهن جميعاً في مراحل حاسمة من حياتها ودعمها.

2.3.2.2.1. لورا روديج

منذ انتحار حبها الأول، لم يعد العديد من الرجال يرافقون غابريلا في رحلاتها ومسيرتها الحياتية، بل فضلت أن تحيط نفسها بحنان النساء الشافي. أول من بقي اسمها ولقبها مسجلاً هي لورا روديج. كانت غابريلا قد تعرفت على لورا روديج في بونتا أريناس عام 1918. ورافقت لورا غابريلا عام 1922 إلى المكسيك على متن السفينة «أوركوتا».

وقد أهدت غابريلا، وهي على قيد الحياة، القصيدة التي تفتتح ديوان «الوحشة» إلى المرأة التي كانت، على الأرجح، تشاركها حياتها آنذاك: لورا روديج. وهذا هو الجوهر: مشاركة الحياة. وتفتتح هذه القصيدة الجزء الأول من الأجزاء الثمانية التي ينقسم إليها ديوان «الوحشة». وهو الجزء الأول الذي يحمل عنوان «الحياة».

«المفكر» لرودان

وإذ يستند ذقنه على يده الخشنة،
يتذكر «المفكر» أنه لحم من العظم،
لحمًا فانيًا، عارياً أمام القدر،
لحم يكره الموت، وارتجف من الجمال.

ورتحف من الحب، بكل ربيعه المتقد،
والآن، مع حلول الخريف، يغرق في الحقيقة والحزن.
تخطر عبارة «علينا أن نموت» على جبينه،
بكل حدة من البرونز، عندما تبدأ الليل.

وفي الكرب، تنشق عضلاته، متألمة.
كل شق في جسده يمتلئ بالرعب.
تنشق، كورقة الخريف، أمام الرب القوي

الذي يناديه عبر النحاس... ولا توجد شجرة معوجة
من أشعة الشمس في السهل، ولا أسد بجرح في جنبه،
متوترين مثل هذا الرجل الذي يتأمل الموت.

2.3.2.2.2. بالما غيلين

كانت بالما غيلين صديقة أخرى لغابرييلا. وقد أهدت غابرييلا لها ديوانها الشعري الثالث، الذي نُشر عام 1938، بعنوان «تالا». وجاء النص الكامل للإهداء الجميل جدًا في ذلك الكتاب كما يلي: «إلى بالما غيلين، ومن خلالها، إلى رحمة المرأة المكسيكية». من المعروف أن بالما تبنت ابن غابرييلا وقامت بتربيته معًا. وكانتنا معًا في بيترولييس عندما انتحر الشاب.

2.3.2.2.3. دوريس دانا

كانت دوريس دانا آخر رفيقة بقيت إلى جانب غابرييلا منذ عام 1946 وحتى وفاة غابرييلا في عام 1957، أي خلال السنوات الإحدى عشرة الأخيرة من حياتها، كما كانت هي التي حافظت على إرثها الأكثر قيمة. عندما تعرفنا على بعضهما، كانت دوريس تبلغ من العمر 26 عامًا وغابرييلا 57 عامًا، بفارق 31 عامًا بينهما.

كانت دوريس امرأة عظيمة أخرى: أول محترفة من نوعها تضع برنامجًا لإعادة التأهيل لألمانيا ما بعد الحرب في عام 1945. وهو نفس العام الذي حصلت فيه غابرييلا على جائزة نوبل.

إن أهم إرث لميسترال هو ذلك الذي جمعه دوريس دانا بلا كلل، لا سيما منذ أن لاحظت أن غابرييلا كانت تقترب من رحيلها. كانت دوريس دانا في ذلك الوقت تدرك ليس فقط أن حياة غابرييلا ميسترال كانت محدودة بسبب مرض السكري ومشاكل القلب التي كانت تعاني منها، بل أيضاً أن غابرييلا ستصبح شخصية عظيمة يوماً ما.

لذلك بدأت دوريس في أوائل الخمسينيات بتسجيل دقيق لكل محادثة أجراها مع الشاعرة. علاوة على ذلك، جمعت رسائلها وآلاف المقالات الأدبية التي تُعد جواهر حقيقية، لكونها كُتبت بواسطة امرأة تتمتع برؤية وحساسية عظيمتين.

عندما توفيت غابرييلا في مستشفى هيمبستيد بنيويورك في 10 يناير 1957 بسبب سرطان البنكرياس، وكانت دوريس دانا بجانبها، كانت غابرييلا تعلم أن إرثها سيبقى في أيدي أفضل وصية في العالم. وقد احتفظت دوريس بهذا الإرث، الذي بُني بالحب ومن أجل الحب، حتى وفاتها في نوفمبر 2006.

2.3.2.2.4. التكهّنات حول المثلية الجنسية

كانت هناك تكهّنات كثيرة حول ما إذا كانت غابرييلا ميسترال مثلية في عصر كان فيه المثلية الجنسية غير مفهومة بشكل صحيح.

اليوم، على الأقل في أوروبا، أصبح هذا الأمر من الماضي. في إسبانيا، جعل القانون التاريخي رقم 2005/13 المؤرخ في 1 يوليو، الذي عدّل القانون المدني فيما يتعلق بحق الزواج، إسبانيا ثالث دولة أوروبية، بعد بلجيكا وهولندا، تسمح للمثليات والمثليين بالزواج، إذا رغبوا في ذلك. من حيث الحقوق المدنية، كان ذلك ثورة حقيقية، ثورة رائعة.

وماذا كانت غابرييلا تفعل في السرير، إن كانت قد شاركت فيه، مع النساء اللواتي رافقنها في حياتها؟ حسنًا، كان من حقها أن تفعل ما تشاء. إذا كانت غابرييلا ودوريس، أو غابرييلا وبالما، أو غابرييلا ولورا قد مارسن في أوقات فراغهن أمراً يمكن وصفه بأنه عابث، فهذا شأنهن.

على الرغم من انتشار شائعات في تشيلي أثناء حياة غابرييلا حول علاقتها السحاقية المزعومة مع دوريس، ويُقال إن تلك الشائعات وصلت إلى مسامع غابرييلا وأنها، متألمة، قررت ألا تعود لتستقر في وطنها، مفضلةً البقاء في الولايات المتحدة، فإن الحقيقة هي أن دوريس أنكرت، حتى آخر أيام حياتها، وجود أي علاقة سحاقية بينهما.

ولهذا السبب، يُعتبر الكتاب الذي نُشر في تشيلي عام 2009 عن دوريس وغابرييلا كتابًا غير لائق. يحمل هذا الكتاب عنوان «الفناء التائهة» (Niña Errante)، وقد نشرته دار «لومين» (Lumen) في تشيلي، مع نصوص و مقدمة وملاحظات بقلم بيدرو بابلو زيغرس، أمين أرشيف الكتاب في المكتبة الوطنية التشيلية، استنادًا إلى 250 رسالة اختارها زيغرس من المراسلات بين غابرييلا ودوريس، وهي نفس المراسلات التي احتفظت بها دوريس بشرف حتى وفاتها، والتي لم تصل إلى تشيلي إلا في أواخر عام 2007. يمكن اعتبار هذا الكتاب إهانة للكرامة، ولو لمجرد أنه يسمح باستخراج هذه الاقتباسات من الكلمات التي وجهتها غابرييلا إلى دوريس، والتي تغمر منذ عام 2009 الجانب المريض من شبكة الإنترنت: «دوريس، أنا في الولايات المتحدة من أجلك»؛ «أنا ملكك في كل مكان في العالم والسماء»؛ و«ربما كان من الجنون الشديد الانغماس في هذه العاطفة».

ولمحاولة إثبات ما يُزعم، نورد أدناه قصيدة لشاعرة دومينيكية عظيمة؛ أستاذة جامعية في جامعة « la Universidad Autónoma » في سانتو دومينغو (UASD)؛ أم لابنتين وجدة لأربعة أحفاد؛ مثلية منذ فترة؛ وقد نشرت أعمالها في مجموعات شعرية مثلية. في قصيدتها «نساء...» من ديوان «النشوة السحرية»، يمكن ملاحظة الاختلاف في النبرة بين «حب أم العالم» لغابرييلا و«حب امرأة العالم» لنيلسي أديبوت ريبس.

نساء...

نساء جميلات
مليئات بالنار والحيوية
بعيون كبيرة، حسية
يلعين رقصة الحب
يرقصن بحرية
يخلقن عالياً...

نار داخلية
حرية في الانسياب
معاً، بمفردنا، مع أخريات...

نساء راقصات، عاشقات
يدورن
في رقصة سحرية من الأوشحة
شعرهن، ووركهن...

يطيرن، يطفون،
دون عوائق
دون تعثر
بدون حدود...

حلم إيروتيكي
خيال غريب
تتدفق عبر البحر والرياح
يستمد الطاقة الأرضية
تحولني إلى
امرأة غنية، جميلة
مثيرة، حسية...

2.3.2.3. غابرييلا أحبت جميع النساء

لكن غابرييلا لم تحب امرأتين أو ثلاثاً فحسب، بل أحبت وفهمت جميع نساء العالم، كما يتضح من «قصائد الأم الأكثر حزناً».

قصائد الأم الأكثر حزناً

المنبوذة

قال أبي إنه سيطرمني، وصرخ في أمي قائلاً إنه سيطرمني هذه الليلة ذاتها.

الليلة دافنة؛ في ضوء النجوم، يمكنني السير إلى أقرب قرية؛ لكن ماذا لو وُلد في هذه الساعات؟ ربما استدعاه نحيبي؛ ربما يريد الخروج ليرى وجهي المبلل بالدموع. وسيرتجف في الهواء القارس، حتى لو غطيته.

لماذا أتيت؟

لماذا أتيت؟ لن يحبك أحد، رغم أنك جميل، يا بني. ورغم أنك تبتسم بمرح، مثل الأطفال الآخرين، مثل أصغر إخوتي، فلن يقبلك سواي، يا بني. ورغم أن يديك الصغيرتين ستتحركان بحثاً عن الألعاب، فلن يكون لديك للعب سوى صدري ودموعي، يا بني.

لماذا أتيت، إذا كان الذي جلبك قد كرهك عندما شعر بوجودك في رحمي؟

لكن لا! لقد أتيت من أجلي؛ من أجلي أنا التي كنت وحيدة، وحيدة حتى عندما كان يضغطني بين ذراعيه، يا بني!

وهذه «قصائد الأم الأكثر حزناً»، التي تُعد الجزء الثاني من «قصيدة الأمهات»، تحتوي على نص فرعي لم تكن الكلمة التي تصفه موجودة آنذاك، فكان غابرييلا تسميه، بتواضعها المعهود في كل ما تكتبه، «ملاحظة»، وهو ما يفسر نشأة القصيدة.

ملاحظة: ذات مساء، وأنا أتجول في أحد شوارع تيموكو البائسة، رأيت امرأة من أهل البلدة جالسة على عتبة كوخها. كانت على وشك الولادة، وكان وجهها ينم عن مرارة عميقة. مرّ رجل أمامها، وألقى عليها عبارة قاسية، جعلتها تحمر خجلاً. شعرت في تلك اللحظة بكل تضامن الجنس الأنثوي، والرحمة اللامتناهية التي تكنها المرأة للمرأة، فابتعدت وأنا أفكر:

-إنها إحدنا التي يجب أن تقول (بما أن الرجال لم يقولوا ذلك) عن قدسية هذه الحالة المؤلمة والإلهية. إذا كانت مهمة الفن هي تجميل كل شيء، في رحمة هائلة، فلماذا لم نظهر هذا، في عيون غير الطاهرين؟

وقد كتبت القصائد السابقة بنية تكاد تكون دينية.

بعض تلك النساء اللواتي، لكي يظللن عفيفات، يحتجن إلى غض الطرف عن الواقع القاسي، وإن كان حتمياً، قد جعلن من هذه القصائد تعليقاً حقيقياً، مما أحرزني، من أجلهن أنفسهن. بل إنهن ألحن إليّ بأن أحذفها من كتاب.

في هذا العمل الأنثوي، الذي تقلصت قيمته في عيني بسبب هذا الأنانية، ربما تكون هذه النصوص الإنسانية هي الشيء الوحيد الذي يُغنى فيه بالحياة الكاملة. هل كان عليّ حذفها؟

لا! ها هي باقية هنا، مكرسة للنساء القادرات على رؤية أن قداسة الحياة تبدأ بالأمومة، التي هي، بالتالي، مقدسة. فليشعرن بالحنان العميق الذي تنظر به امرأة ترعى أبناء الآخرين على الأرض، إلى أمهات جميع أطفال العالم!

يتألف الجزء الأول من «قصائد الأمهات» من 17 قصة شعرية قصيرة جدًا، ومن بينها نود أن نسلط الضوء على «إلى الزوج»، التي كتبتها امرأة قررت ألا تتزوج أبدًا، والتي يمكنها أن تعلم جميع رجال العالم كيف تريد المرأة حقًا أن يحبها زوجها أثناء الحمل.

إلى الزوج

يا زوجي، لا تضيق عليّ. لقد جعلته ينبثق من أعماق كياني كزهرة الزنبق المائية. دعني أكون كالماء الهادئ.

أحبني، أحبني الآن أكثر قليلاً! أنا، الصغيرة جدًا! سأضاعفك على الطرقات. أنا، الفقيرة جدًا! سأمنحك عيونًا أخرى، وشفاهًا أخرى، تستمتع بها بالعالم؛ أنا، الرقيقة جدًا! سأشوق كجرة من أجل الحب، حتى يتدفق نبيذ الحياة هذا مني.

سامحني! أنا أعرج في مشيتي، وأعرج في سكبي كأسك؛ لكنك أنت من ملأنتني هكذا وأعطيتني هذه الغرابة التي أتحرك بها بين الأشياء.

كن لي أحلى من أي وقت مضى. لا تحرك دمي بقلق؛ لا تهز أنفاسي.

أنا الآن مجرد حجاب؛ جسدي كله حجاب، وتحت هذا الحجاب طفل نائم!

2.3.2.4. غابرييلا أحبت جميع الشعوب

كدليل على أن غابرييلا كانت دائماً تتمتع بوعي سياسي وأنها أحبت البشرية جمعاء، نود أن نسلط الضوء على قصيدة كتبها بعنوان «إلى الشعب العبري» في أعقاب المذابح التي وقعت في بولندا، وهي مدرجة في ديوانها الشعري «الخراب»، الذي لم يُحدد تاريخه أيضاً، للأسف.

إلى الشعب العبري

أيها الشعب اليهودي، جسد الألم،
أيها الشعب اليهودي، نهر المرارة:
مثل السماوات والأرض، تدوم
وتزداد غابتكم من الصرخات.

لم يترك لجروحك أن تنهوى أبداً؛
ولم يُسمح أبداً بأن يُمد لك ظل
ليعصر ضمادتك ويجدها،
أكثر من أي وردة حمراء.

لقد هدده العالم أنينك.
وأنا ألعب بخيوط دموعك.
تجاعيد وجهك، التي أحبها كثيراً،
عميقة كجروح المنشار.

ترجف النساء وهن يهززن أطفالهن،
ويرزق الرجل حزمته وهو يرتجف.
في أحلامك استقر الكابوس
وكلمتك ليست سوى «ميزيري»!

أيها الشعب اليهودي، وما زال لديك صدر
وصوت غسل، لتسبح موطنك،
وترديد «نشيد الأنشاد»

بلسان وشفنتين وقلب منكسرين.

في زوجتك ما زالت مريم تسير.
وعلى وجهك يظهر ملامح المسيح؛
على سفوح صهيون رأوه
يناديك دون جدوى، عندما يحل المساء...

كان ألمك في ديماس ينظر إليه
فقال لديماس الكلمة العظيمة
ولكي يمسح قدميه، يبحث عن ضفيرة
مريم المجدلية، فيجدها ملطخة بالدماء!

أيها الشعب اليهودي، جسد الآلام،
أيها الشعب اليهودي، نهر المرارة:
مثل السماوات والأرض، أثبتني
وتنمو غابتك الواسعة من الصيحات!

يُقال إن دانا دوريس كانت يهودية. لو كان ذلك صحيحًا، لكان هناك امرأة يهودية ساعدت في تكريم إرثها.

2.4. غابرييلا: فنانة وصوفية معاصرة

2.4.1. غابرييلا الفنانة

غونزالو روخاس هو أحد المؤلفين القلائل الذين لا يكتفون بتسامح غابرييلا على «سوء ذوقها» في الحديث عن أمور حميمة وشخصية فحسب، بل يمدحها أيضًا. وقد قال غونزالو في كتابه « » (مختارات من غابرييلا) الصادر ضمن «مختارات الأكاديميات»، إن ما يميز غابرييلا هو: «صدق المشاعر، والتمزق العاطفي، الذي يكاد يكون كيويدياً... الرؤية البعيدة... التشف في أعماق العاطفة الجياشة... الطابع البركاني بل وحتى الهستيري، ولكن مع الدقة في الوقت نفسه... لم تنبهر بالحركات الطليعية، بل بقيت تستمع بهدوء إلى اللغة الشفوية لأبناء بلدها في أمريكا، بما فيها من كلمات قديمة وهمسات، مثل تيريزا دي أفيللا، وهكذا وصفت لنا العالم بين العرافة والازدراء».

كانت غابرييلا فنانة بكل ما للكلمة من معنى، فهي كانت تتصور الفن وتبجله خالياً من النزعة التجارية. ولا يمكن إلا لروح عظيمة أن تورثنا «الوصايا العشر للفنان» التالية، الجزء «الرابع» بالرقم الروماني، من قصيدتها «الفن» الواردة في الجزء السابع من «الخراب»، وهو الجزء المعنون «النثر».

الوصايا العشر للفنان

- I: ستحب الجمال، فهو ظل الله على الكون.
- II: لا يوجد فن ملحد. حتى لو لم تحب الخالق، فستؤكد إيمانك به من خلال الإبداع على صورته.
- III: لا تجعل الجمال طعمًا للحواس، بل غذاءً طبيعيًا للروح.
- IV: لن تكون ذريعة للشهوة ولا للغرور، بل ممارسة إلهية.
- V: لا تبحث عنها في المعارض ولا تعرض أعمالك فيها، لأن الجمال عذراء، وما يوجد في المعارض ليس هو.
- VI: ستصعد من قلبك إلى غنائك، وستكون قد طهرت أنك أنت أولاً.
- VII: سيطلق على جمالك أيضًا اسم «الرحمة»، وسيعزي قلوب البشر.
- VIII: ستقدم عملك كما يُقدّم الابن: بسحب دم من قلبك.
- IX: لن يكون الجمال بالنسبة لك أفيوناً مخدراً، بل نبضاً كريماً يشعل فيك الحماس للعمل، فإذا توقفت عن كونك رجلاً أو امرأة، فستتوقف عن كونك فناناً.
- X: ستخرج من كل خلق وأنت تشعر بالخل، لأنه كان أدنى من حلمك، وأدنى من ذلك الحلم الرائع لله، وهو الطبيعة.

2.4.2. غابرييلا الصوفية الحديثة

ربما لأن غالبية الرجال لم يفهموا أبداً الجانب الصوفي والإلهي في النساء، أو في الرجال الآخرين، أولئك الذين يستخدمون بالفعل النصف الأيمن من دماغهم وليس فقط النصف الأيسر العقلاني، ربما لهذا السبب يفاجئهم، كما فاجأ غونزالو روخاس، أن غابرييلا ميسترال كانت شغوفة بأمادو نيرفو وكرست له مراثية بعد وفاته بعنوان «في ذكرى». ويتساءل روخاس في كتابه «la Antología» الصادر عام 2010، وأقتبس: «ما الذي يمكن أن يكون قد سحرها فيه سوى عبادة السحر الأسود والباطنية؟». وأعتقد أن روخاس، بالضبط لأنه عاجز عن التواصل مع تلك الجوانب الصوفية، يسمح لنفسه بكتابة تلك التعليقات. ولهذا السبب، على الرغم من أن روخاس يُعد أحد عظماء الأدب التشيلي والأمريكي اللاتيني، وهو الذي يُعد في مصاف بابلو نيرودا، إلا أنه يبدو عاجزاً عن فهم وتقدير الصوفية الأنثوية.

دعونا لا ننسى أن غابرييلا، في النسخة الأصلية من «الوحشة»، لم تكتفِ بالثناء على الروحانية لدى نيرفو فحسب، بل كان هناك قصيدة نثرية جميلة جداً بعنوان: «تعليقات على قصائد رابيندرانات طاغور»، وقد كان طاغور أول رجل غير أوروبي (كان هندياً من la India) يفوز بجائزة نوبل في الأدب؛ وقد حصل عليها في وقت مبكر جداً، في عام 1913، في حين لم يحصل عليها أي أمريكي حتى عام 1930، ولا أي أفريقي حتى عام 1986؛ وقد حصل على جائزة نوبل تلك تحديداً بفضل شعره الصوفي.

وفيما يلي نسخة من قصيدته «العذاب»، التي تجسد لعنته الصوفية والرؤيوية.

العذاب

منذ عشرين عاماً وأنا غارق في الجسد
—والخنجر حار—
بيت شعر ضخم، بيت شعر بقمم
من المد.

من جراء احتوائه بخضوع، فإن الأحشاء
تتعبد جلالته.
بهذا الفم المسكين الذي كذب
هل يجب أن تُغنى؟

فكلمات البشر الزائلة
لا تحمل الحرارة
لألسنتهم النارية، ولا
التي لا تهدأ.

مثل الابن، الذي يتغذى على دم
يتغذى،
ولم يشرب الابن دماً أكثر من حليب
امرأة.

يا لها من هبة مروعة! يا لها من عذاب طويل
تدفع إلى العواء!
من جاء ليغرسه في أحشائي
فليترحم!

تكريماً للجانب الصوفي في شخصية غابرييلا ميسترال، نورد هنا قصيدة لرجل يمكن اعتباره أفضل شاعر دبلوماسي إسباني على مر العصور: الباسكي رامون دي باستيرا إي زابالا.

«الشعرة الرومانسية»
الزاهدون

كاستيلا، تيبايدا المتقدمة.
بثوب التوبة الخشن
والحبل المتواضع حول الخصر،
كائنات من الجمر، أرواح من نار،
يعيشون في سكبنة صوفية،
وجوههم موجهة نحو السماء.

هاريين من اللطف والحنان
يغوصون بجرأة في الأبدية،
بدون زوجة، ولا أم، ولا أخت.
تروي وجوه القمر،
ونجوم الليل الداكن،
عظمة الله الغامضة.

عن سلام الأرواح الجميلة
وانسجام النجوم،
المسيح المتناغم هو الفاعل.
نظام العالم المقدّر
هو المسيح، المسيح، المسيح، المسيح.
كاستيلا، تيبايدا المتقدمة.

وغابرييلا، رغم أنها لم تكن من كاستيلا، كانت «روحاً نارية» و«صوفية» «هربت من اللطف والحنان» لتسلط الضوء على ظلم العالم. كانت غابرييلا قبل كل شيء الصوفية العظيمة للقرن العشرين في اللغة الإسبانية، وبالتالي، شخصية لم تُفهم حقاً.

ولم يكن رامون دي باستيرا نبياً في وطنه أيضاً. توفي في سن الأربعين في مركز للأمراض النفسية في إقليم الباسك (1928).

2.5. ولم تكن غابرييلا، كما لم تكن أي امرأة في حياتها قط، «نبية» لا «في وطنها» (تشيلي)، ولا في مجالها (الشعر)

في غضون ذلك، كان الزمن يداوي جراح تشيلي المضطربة، وبحلول الوقت الذي توفيت فيه دوريس دانا في نوفمبر 2006، وتبرعت ابنة أختها دوريس أتكينسون إلى حكومة تشيلي بإرث غابرييلا ميسترال الكامل، وكما أن السحر موجود والأمريكتان ساحرتان، فقد كانت امرأة، امرأة عظيمة أخرى، قد أصبحت بالفعل رئيسة لتشيلي: ميشيل باشيليت.

وعندما وصلت تركة غابرييلا ميسترال، التي تضم أكثر من 40 ألف وثيقة جمعتها دوريس دانا بحب، إلى تشيلي في ديسمبر 2007، كانت ميشيل قد أصبحت بالفعل رئيسة، فتم استقبال تركة غابرييلا بالشكل الذي تستحقه. وتوجد هذه التركة حالياً في أرشيفات المكتبة الوطنية التشيلية.

لكن الاحتفاء بإرث امرأة توفيت عام 1957، مع اقتراب نهاية عام 2007، لا يعني بالضرورة تكريمها. كما أن جائزة الأدب الوطنية التي مُنحت لها في تشيلي عام 1951، على مضض وتأخر، بعد ست سنوات من حصولها على جائزة نوبل، لم تكن تكريماً لها. ولا ذلك الدكتوراه الفخرية الأولى التي منحتها لها جامعة تشيلي عام 1954، أيضاً على مضض وتأخر، بعد العديد من الدرجات التي كانت قد حصلت عليها بالفعل في ذلك الوقت، بدءاً من الدكتوراه الفخرية التي منحتها لها بكل شجاعة كلية ميلز في أوكلاند (كاليفورنيا، الولايات المتحدة) عام 1947، والتي تلتها درجات الدكتوراه الفخرية من جامعات غواتيمالا ولوس أنجلوس (كاليفورنيا، الولايات المتحدة) وفلورنسا (إيطاليا)، على سبيل المثال لا الحصر من بين السيل الهائل الذي أعقب منحها جائزة نوبل.

ومع ذلك، لم تقدّر تشيلي بعد بالقيمة التي تستحقها تلك الجوهرة التي ولدت من رحمها: غابرييلا ميسترال، وكذلك الحال بالنسبة للعالم الأيبيري الأمريكي، بما في ذلك إسبانيا، على الرغم من «المختارات التكريمية» التي صدرت

عام 2010، المليئة بتحليلات كبار الخبراء، لكنها تفتقر إلى فهرس يضم ليس فقط تحليلات الخبراء، بل وقبل كل شيء قصائد غابرييلا.

في المقابل، فإن العالم الكبير، العالم الواسع، العالم غير الأيبيري-الأمريكي، ذلك العالم الاسكندنافي، ذلك العالم الأنجلوساكسوني، ذلك العالم العالمي، يعرف حقاً قيمة غابرييلا، فبرغم عدم تحديثهم الإسبانية في كثير من الأحيان، وبالتالي فقدانهم أفضل ما قدمته غابرييلا، ورغم كل ذلك، فقد تمكنوا من استشعارها، وتقديرها وتكريمها كما تستحق: بمنحها جائزة نوبل للآداب في 10 ديسمبر من عام 1945.

في العام نفسه، 1945، في الثاني من سبتمبر، تم إنهاء أكبر عمل وحشي عرفته البشرية حتى ذلك الحين رسمياً: **la Segunda Guerra** الحرب العالمية. ومن يدري إن كانت جائزة نوبل تلك، التي مُنحت في عام 1945 بالذات، ليست عملاً قام من خلاله العالم بتطهير «كارماه» [مفهوم هندي من **la India**، وليس هندوسياً، حيث يشترك فيه الجاينيون والبوذيون، وهو ما يعني «ديون الحياة المستحقة السداد»] تجاه نساء العالم بسبب عدد الأبناء والبنات الذين سلبهم منهن خلال تلك الحرب العالمية الثانية المجنونة، وذلك بمنح جائزة نوبل في الشعر لأول مرة في **la Historia** لامرأة، بل ولصوفية حديثة كانت تكتب الشعر باللغة الإسبانية ولم تمض سوى اثني عشر عاماً في منصب قنصلية متواضعة، لكنها كانت معلمة رائعة، ودائماً ما كانت تعلمت بنفسها. قمة الصدفة السعيدة.

وهناك جامعة خاصة، وهي من أوائل الجامعات في تشيلي، تحمل أيضاً منذ عام 1981 اسم غابرييلا ميسترال، وهي جامعة غابرييلا ميسترال.

3. الخلاصة: غابرييلا ميسترال، المعلمة العظيمة، والقنصل، والمرأة، والشاعرة، والصوفية الحديثة، وكل ذلك بأحرف كبيرة

وأختتم ببعض التأملات الشخصية.

لكي لا يتوقف تكريم من يستحقون التكريم أبداً، أردنا تكريم غابرييلا ميسترال، محاولين على الأقل تكريمها كما تستحق، أي دون تحيزات وبكثير من الحب.

أشعر، ولطالما شعرت، بتعاطف شديد مع غابرييلا ميسترال. لقد اتسمت حياتنا بنفس المحاور الأربعة التوجيهية التي تحدثت عنها حتى الآن: الولادة بموهبة أدبية [حصلت على جائزتها الأدبية الأولى من «**la FECH**»، أما أنا فحصلت على جائزتي من معهد «**Miguel Hernández**» في أليكانتي]؛ العمل كمعلمات [أنا أعمل مدرسة لغات خاصة منذ سن 13 عاماً، وهي كانت معلمة منذ سن 16 عاماً]؛ العمل كدبلوماسية [أنا دبلوماسية منذ سن السادسة والعشرين، وكان أول منصب لي في الخارج هو قنصلية إسبانيا في صوفيا، أما هي فكانت قنصلية تشيلي منذ سن الرابعة والأربعين حتى وفاتها عن عمر 67 عاماً]؛ وكلتانا صوفيّتان عصريّتان، وبالتالي كلتانا غير مفهومتين إلى حد كبير من قبل المؤسسة الذكورية المحيطة بنا، هي حتى عام 1957 عندما تحررت، وأنا حتى يومنا هذا.

كما كان بيننا محور توجيهي خامس مشترك. ورغم أنه أقل وضوحاً بكثير من المحاور السابقة، إلا أنه في رأيي المحور الأساسي، وهو أن كلتينا كان لدينا دائماً هدف واحد: فضح المظالم في العالم المحيط بنا، ومن خلال هذا الفضح محاولة تحسين عالمنا، عالم الجميع. ذلك العالم الذي كان دائماً تقريباً عالماً للجميع، ولم يكن أبداً تقريباً عالماً للجميع.

كانت غابرييلا تحاول ذلك من خلال قصائدها. وعلى الرغم من أن قصائدها كانت ولا تزال تتمتع بجمال وروعة ساميتين، لكنابتهما عن النساء ومن أجلهن، ولأبناء وبنات هؤلاء النساء، فقد انتقدتها الرجال «الأذكىاء جداً» في وطنها تشيلي انتقاداً شديداً، واصفين كشف «الأسرار القذرة» لتقلبات حياة النساء والفتيات والأطفال بـ«سوء الذوق».

وتوفيت غابرييلا ميسترال، قبل أن تبلغ الثامنة والستين من عمرها بقليل. ولو منحتني الحياة هذا القدر من العمر، لرغبْتُ في أن أفعل ما فعلته هي: أن أقاتل وأستمر في القتال، رغم عدم النفع، من أجل حقوق من لا صوت لهم، نحن اللواتي نتمتع بامتياز أن يكون لنا صوت.

وأنا، بصفتي امرأة، وبصفتي امرأة عانت كثيرًا؛ وبصفتي امرأة، على الرغم من ذلك أو ربما بسبب ذلك بالذات، أظل قبل كل شيء مناضلة من أجل الحرية، تمامًا كما كانت غابرييلا، أختتم إذن بإبداء رأيي في غابرييلا: غابرييلا ميسترال كتبت أجمل الأبيات التي كتبها أحد على الإطلاق باللغة الإسبانية.

وكما أرى أن آن سيكستون، امرأة أخرى من الأمريكيتين، من وراء المحيط الأطلسي، كتبت أجمل الأبيات التي كتبها أحد على الإطلاق باللغة الإنجليزية. ما الذي تتمتع به الأمريكتان؟ سحر، الكثير من السحر. وقد انتزعوا من آن سيكستون ابنتها في مصحنتين نفسيين وأعطوهما للتبني؛ وانتهى بها الأمر بالانتحار في سن 46 عامًا.

وأختتم بحلم. حلمي هو ألا تموت أي فتاة، ولا أي امرأة، بسبب جرائم الشرف أو جرائم قتل النساء. أأمل أن أتمكن من النضال بحماس وقلب وإرادة، وهو ما تعلمته من غابرييلا ميسترال، لأسهم بجزء صغير في تحقيق هذا الهدف.

المراجع

ألدبيوت ريبس، ن.: «النشوة السحرية»، دار النشر «بوهو»، سانتو دومينغو، 1999.

رابطة أكاديميات اللغة الإسبانية. «*En Verso y Prosa. Antología de Gabriela Mistral*». طبع في بيرو. 2010.

بيلي، ج.: «أوج»، دار نشر فيسور ليبروس، مدريد، الطبعة السادسة، 2009.

كامبوامور، سي: «الثورة الإسبانية من وجهة نظر جمهورية»، دار إسبويلا دي بلاتا للنشر، 2005.

دوك، أ.: «قوافي واضحة. المختارات الأولى لشعراء الدبلوماسيين في القرن العشرين»، دار نشر دوس سوليس، بورغوس، 2004 [هنا توجد قصيدة رامون باستيرا وزابالا التي أوردها في هذا المقال؛ وهي مختارات تختتم بقصيدة من تألّفي].

ميسترال، ج.: «الوحشة»، دار إسباسا كالب، الطبعة السادسة، 1983.

نيرودا، ب.: «عشرون قصيدة حب. مائة سوناتة حب»، دار نشر بلانيتا، فبراير 1984.

أوليفر لابر، سي: «خطأ سحري»، دار النشر «ليتراس كوباناس»، 2004.

تريفايغ، س.: «عالم الأمس»، دار النشر «أكانتيلادو»، برشلونة، 2002.